عادات وتقاليد من التاريخ القديم في مقالات لويس شيخو في مجلة المشرق بين ١٨٩٨ - ١٩٠٨

مروان أبي فاضل*

الملخص

تولّى الأب لويس شيخو رئاسة تحرير مجلة المشرق منذ تأسيسها سنة ١٨٩٨، وترك مقالات علمية وردودًا على أسئلة القرّاء تناولت مواضيع متعددة ومختلفة منها على صلة بعادات وتقاليد دينيّة واجتماعيّة، وردودًا دافع من خلالها عن العقيدة الكاثوليكيّة. تميّزت ردود الأب شيخو بأنها كانت مُختصرَة وواضحة وقد استعان بمؤلّفات آباء الكنيسة وبمصادر كلاسيكيّة ودراسات علميّة وضعها مؤلّفون أوروبيّون.

وتكمن أهميّة ردوده بأنه ربط بين هذه العادات وبين عادات الشعوب القديمة، وبعضها ما زال قائمًا حتى يومنا، وقد رثها الناس عن آبائهم وأجدادهم. ومنها على سبيل المثال: عادة البسترينة أو الصباحيّة، يوم ميلاد المسيح، عيد القديسة بربارة وغيرها. وكانت هذه المواضيع عناوين لمقالات علمية وضعها مؤرّخون لبنانيّون لاحقًا من أمثال أنيس فريحة وغيره. ومما يلفت النظر بأن هذه الردود التي جاءت ردًا على أسئلة القرّاء، تبيّن أن جوًا ثقافيًا كان سائدًا آنذاك، وكان نقل المعرفة آنذاك وتبادل الأفكار يتمّ من خلال المجلات العلميّة التي نأمل أن تحافظ على دورها.

الكلمات المفاتيح: المشرق، العادات والتقاليد، التاريخ القديم، الفكر الديني، مصر القديمة، بلاد ما بين النهرين، كنعان وفينيقا.

* أستاذ في كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، الجامعة اللبنانيّة، marwanabifadel@ul.edu.lb

المقدمة

وُلد الأب لويس شيخو (١٨٥٩–١٩٢٧) في بلدة ماردين يوم ٥ شباط ١٨٥٩، واسمه رزق الله وكان أصغر أشقائه التسعة. رافق والدته إلى الأراضي المقدسة، فتوقفا في لبنان ليزورا أخاه البكر الذي كان التحق بالرهبانيّة اليسوعيّة في دير غزير. فبقي الولد في الدير المذكور وكان له من العمر ثماني سنوات، وأتمّ فيه دروسه الثانوية، وانتمى سنة ١٨٧٤ إلى الرهبانيّة اليسوعيّة وله من العمر ١٦ سنة، واتّخذ اسم لويس. تنقّل بين لبنان وفرنسا وانكلترا لمتابعة تنشئته الروحيّة والأدبيّة والفلسفيّة واللاهوتيّة، ورُسم كاهنًا سنة ١٨٩٤. وأمضى في تلك الأثناء سبع سنوات يدرّس اللغة العربية وآدابها، وشرع بدءًا من العام ١٨٨٢، ولمّا يتجاوز الثالثة والعشرين، يُصدر كتاب "**مجاني الأدب في حدائق العرب**" الذي اعتُمد للتدريس في البلدان العربيّة أكثر من مائة سنة بعد طبعته الأولى. وأهمية الكتاب أن الراهب شيخو استقى مئات نصوص الكتاب من مخطوطات قديمة، بعد أن بوّبها وشرحها، لغة وتاريخًا وأدبًا، ثم راح ينشر الكتب والمقالات .[١]

وليدعم مشروعه أصدر بتشجيع من رؤسائه مجلة المشرق التي تولّى رئاسة تحريرها منذ تأسيسها العام ١٨٩٨ . وحدّد دوافع تأسيس المجلة[٢] في مقدمة الطبعة الأولى، وأولها مواكبة التقدّم الذي وصلت إليه البلاد "**منذ زهاء خمسين**". وبعد شكر السلطات العثمانيّة على السماح لليسوعيّين بتأسيس مجلة لكاثوليك المشرق، ذكر أن اسم المجلة ينطق بنفسه وأن الرغبة بتأسيسها نشر أبحاث متعلقة "**بالشرق والطوائف الشرقية وتفضّلها على ما سواها لئلا يُقال إن الغريب أدرى بما في البيت من أهله لا سيما ولا نزال نرى كثرين من الأجانب يعكفون على تتبّع أخبار بلادنا واستبطان أحوالها وكشف مكنون أسرارها فدُعوا لذلك بالمستشرقين**". ولكنه وعد القرّاء بنشر مقالات لغربيّين بما يُقدمون عليه من الأعمال ويبتكرونه من الاختراعات والاكتشافات لتتوفر لأهل البلاد، على

[١] لمزيد من المعلومات عن حياته ومؤلفاته يُمكن مراجعة: حشيمه(٢٠١٣). ص ٩٠–٩٦.

[٢] مجلة المشرق مع مجلة الهلال المصرية التي تأسست العام ١٨٩٢ أقدم مجلتين عربيتين وما زالتا تصدران حتى اليوم.

مثال الغربيّين، "**أسباب العمران والتقدّم**". وهذه المجلة كما ورد في المقدمة "**تظهر مرتين في السنة في أولّه ومنتصفه**" (شيخو، ١٨٩٨، أ، ص ١-٤)[٣].

وضع شيخو مئات المقالات والردود، ولمّا كان مستحيلًا دراستها كلها، اعتمدنا على تلك التي نشرها خلال السنوات العشر الأولى من عمر المجلة، وتناول فيها مقالات من التاريخ القديم، وحقّق مصادر عربيّة – إسلاميّة تناولت التاريخ المسيحي، وتوسّع في دراسة مواضيع مرتبطة بعادات وتقاليد دينيّة تهمّ أبناء المشرق. وتكمن أهمية مقالاته بأنه ربط العادات الاجتماعيّة السائدة بعادات الشعوب القديمة، وبعضها ما زال قائمًا حتى يومنا، وقد ورثها الناس عن آبائهم وأجدادهم. ومنها على سبيل المثال: عادة البسترينة أو الصباحيّة، يوم ميلاد المسيح، عبد الصليب، عيد القديسة بربارة وغيرها. وكانت هذه المواضيع عناوين لمقالات علميّة وضعها مؤرّخون لبنانيّون لاحقًا من أمثال أنيس فريحة وغيره. وما يلفت النظر بأن هذه الردود التي جاءت ردًا على أسئلة القرّاء، تبيّن أن جوًا ثقافيًا كان سائدًا آنذاك، وكان نقل المعرفة وتبادل الأفكار يتمّ من خلال المجلات العلميّة التي نأمل أن تحافظ على دورها.

١ – عادات وتقاليد دينيّة

تناول لويس شيخو في مقالات وردود على أسئلة القرّاء أخبار عادات وتقاليد دينيّة شعبيّة عدّة، وكانت الفترة التي يكتب فيها تزخر بعدة كتابات حول تقاليد القرية اللبنانيّة، ومنها على سبيل المثال قصص مارون عبّود (١٨٨٦-١٩٦٢) الذي تناول بعض العادات مثل بابا نويل والصباحيّة وعيد الصليب والدايم دايم (عبّود، لا ت.، ص ٢٤٥-٢٦٠)[٤] من وجهة نظر مغايرة عن تلك التي عرضها شيخو، فقد أشار إليها مارون عبّود بأسلوب أدبي شائق، فيما تناولها شيخو من وجهة نظر تاريخيّة علميّة، وفي الحالتين إن تناول تلك المواضيع يبيّن أن الناس كانوا مهتمين بتلك الروايات ويودّون الاطلاع على أصلها ومعانيها.

---

[٣]

[٤] يمكن الاطلاع على بعض روايات مارون عن عادات القرية في: (عبّود، ٢٠١٢، ص ٩-٢٥، ١١٥-١٢٠، ١٥١-١٥٨).

١ – ١ – البسترينة

ترك لويس شيخو في العدد الأول من مجلة المشرق الصادر سنة١٨٩٨ مقالات ومداخلات عدّة. فقد تضمّنت المجلة آنذاك فقرة تتناول أسئلة من قرّاء ردّ عليهم الأب لويس شيخو. ففي ردّه على السؤال التالي: "**ما هو أصل العادة الجارية في رأس السنة المعروفة عند العامة بالبسترينة أو الصباحيّة**"(شيخو، ١٨٩٨، ب، ص ٤٧–٤٨) وقد ألقاه كما يقول "**بعض الأدباء**" من دون تحديد هويتهم. يجيب : "**إن البسترينة لفظة دخيلة أخذت من الافرنسيّة (Etrennes) مع زيادة باء الجرّ وهي تُعرف عند كثيرين بالصباحية. أما أصل هذه العادة فقديم جدا قيل إن أول من اتّخذها ملك السابين تاتيوس في القرن الثامن قبل المسيح كان يأتيه آل رعيّته بأغصان يقطعونها في غابة مكرّسة لإلهة القوّة (سترانوا Strenua) في غَرّة السنة الجديدة. فكان يتحفهم ببعض الهدايا. فانتشرت هذه العادة بين الرومان انتشارًا عظيمًا يصحبها عوائد وثنيّة لا سيما في زمن القياصرة، فلما ظهر النصرانية على عبادة الأصنام ورأى الأحبار الرومانيون ما في هذه العادة من الإفراط حظروها على المؤمنين في كثير من المجامع، إلى أن أصاخ الشعوب إلى تعاليمهم، ولم يحفظوا من هذه العوائد سوى ما كان موافقا للآداب. أما سبب تسمية البسرتينة بالصباحيّة فذلك لأنّه من ابتدر الآخر إلى السلام في صباح العام الجديد ودعا له بالخير يحقّ له بعض المُجازاة على صنيعه. وعادة تقدمة الهدايا والألطاف في رأس العام الجديد قديمة في الشرق أيضًا ونرى لها أثرًا قديمًا عند الفرس وهم يدعون ذلك نيروزًا (بالفارسيّة نوروز معناه العام الجديد) يتناقلون فيه الهدايا بينهم**" (شيخو، ١٨٩٨، ب، ص ٤٨).

جاء ردّ شيخو مختصرًا، فلم يذكر مصادره، ولم يترك تفسيرات تاريخيّة توضح من هم السابيّين، ولم يذكر أسماء الأباطرة الرومان، أو المجامع الدينيّة التي عُقدت لتحريم هذه العادة، لكنه بالمقابل اعترف بانتقال هذه العادة من الوثنيّة إلى المسيحيّة، واعتبر أن المسيحيّين حافظوا منها على ما يتوافق مع الآداب.

هذه العادة سيشير إليها بشكل مختصر أنيس فريحة في إطار حديثه عن موقف الكنيسة الرسمي من "الأعياد الوثنية"، وكتب أن بعض الشعوب المسيحيّة تتهادى في رأس السنة عوَضًا عن يوم الميلاد، وهذه عادة "وثنية"

تُنسب إلى الآلهة *Strenia*، وكانت الهدايا الهدايا تُعرف عند الرومان بـ "*Strenal*" وعند الفرنسيين "*Etrennes*" وفي عاميّة مسيحيّي لبنان بُسترينة (فريحة، ١٩٩١، ص ٢٣).

١ – ٢ – يوم ميلاد المسيح

رأى لويس شيخو في ردّ على مقال صدر في مجلة الهلال بعنوان "**يوم ميلاد المسيح**" (شيخو، ١٨٩٨، ج، ص. ٣٣٣-٣٣٤) أن المقال يمسّ ببعض الشعائر الكاثوليكيّة، ومحرّره في معرض جوابه عن سؤال عن تاريخ ميلاد المسيح، اعتبر أن المسيحيّين الأوائل اختلفوا في تعيينه؛ ففي القرنَين الأوّلين كانوا يحتفلون فيه في بعض أيام كانون الثاني أو نيسان أو أيار ثم أجمعت الكنيسة الشرقيّة على أنه في ٦ كانون الثاني، أما اللاتين فجعلوه في يوم ٢٥ كانون الأول، والأرمن يحتفلون بعيدَيّ الميلاد والغطاس معًا في يوم ١٨ كانون الثاني. أما سائر الطوائف فأجمعت على أنه يوم ٢٥ كانون الأول. ثم ارتأى كاتب مقال الهلال أنّ سبب اتّخاذ عيد الميلاد في هذا النهار كان لمنع النصارى من حضور بعض أعياد الوثنيّين ليشغلوهم عن الاحتفال بها (شيخو، ١٨٩٨، ج، ص. ٣٣٣).

اعتبر لويس شيخو أن معلومات صاحب مقال الهلال ليست صحيحة، أولاً، لأن "**الكنيسة الرومانية أوّل من احتفل بعيد ميلاد الرب منفردًا عن عيد الغطاس كما شهد بذلك القديس يوحنا فم الذهب في عظة ألقاها في بدء كهنوته سنة٣٨٦ وفيها يقول إن كنيسة روما عندها في ذلك أصدق الاعلامات. وتشهد على هذا أيضًا أقدم الكلندرات. ثانيًا، لا صحة لقوله إن الكنيسة الشرقية أجمعت على أن هذا العيد يوم ٦ يناير. والصواب أن الكنائس الشرقية قبل القرن الخامس لم تعيّد عيدًا منفردًا لعيد الميلاد بل كانت تجمع بين عيدَي الميلاد والغطاس لأن الربّ ظهر للشعوب يوم عماده، ثم اقتدت هذه الكنائس بالكنيسة الرومانية فأفردت لعييد الميلاد يومًا خصوصيًا هو يوم ٢٥ دسمبر** (كانون الأول). **وبقيت بعض الكنائس على عادتها القديمة منها كنيسة الأرمن فانها تحتفل بالعيدين في ٦ يناير لا في ١٨ يناير كما قال الهلال ما لم يُشر بذلك إلى الحساب اليوليّ القديم**" (شيخو، ١٨٩٨، ج، ص ٣٣٣) وترك شيخو حججًا أخرى تؤكّد خطأ مقال الهلال معتمدًا على أقوال قدّيسين عدّة.

وحول رعي الرعاة لقطعانهم في الفلاة في كانون الأول ردّ شيخو "**أن من له أدنى علم بعوائد بلاد اليهودية لا يستغرب ذلك. وأننا نعرف رجلًا من بيت لحم سكنها ١٥ سنة رأى القطعان ترعى ليلًا في الفلاة في هذا الفصل من السنة. وشهد بذلك كثيرون من سياح الفرنج**". وختم شيخو ردّه بالقول "**لا صحّة لقول الهلال إن عيد الميلاد وُضع في ٢٥ دسمبر** (كانون الأول) **منعًا للنصارى من احتفال أعياد وثنيّة ونحن نعلم أن النصارى الأوّلين كانوا يستنكفون لعوائد المشركين ويأنفون منها بيد أن تواريخ الرومان لا تذكر في ٢٥ دسمبر عيدًا خصوصيًا لآلهتهم**" (شيخو، ١٨٩٨، ج، ص ٣٣٤).

إن تحديد تاريخ ٢٥ كانون الأول عيدًا لميلاد المسيح هو تدبير اتّخذته الكنيسة، ولم ترد أية إشارة إليه في الإنجيل. ويبدو أنّ تحديد هذا التاريخ يعود للمرة الأولى إلى العام ٣٣٦ في الغرب أيام البابا ليبرويوس، أما أصله فحوله نظريّات عدّة منها أنه جاء تمثيلًا لعيد روماني قديم مرتبط بولادة الاله الذي كان يرمز إلى النور والشمس في فترة الانقلاب الشتوي. ويرى فيه آخرون انعكاسًا لتأثّر روما بالأعياد الشرقيّة ومنها أعياد الاله الفارسي مثرا الذي نافست عبادته الديانة المسيحيّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة، وكان الإله مترا في الدّين الفارسي القديم إله النور والحق والعدل وكان رمزه النور والشمس، وكان عيده عيد الشمس يعني انتصاره على الظلمة، وكان يقع أيضا عند المنقلب الشتوي. وعندما أصبحت المسيحيّة دين الامبراطوريّة الرسمي، أخذت الميثراويّة تتقلّص شيئًا فشيئًا، والمسيحيّة تتقدّم ويعتنقها مؤمنون جدد (فريحة، ١٩٩١، ص ١٦–٢٢). وهكذا ضمّت الكنيسة مؤمنين من ديانات مختلفة، وتبنّت بعض الأعياد السابقة، ومنها عيد الميلاد في الخامس والعشرين من كانون الأول.

بدأ اعتماد هذا التاريخ عيدًا لميلاد المسيح في الغرب، ثم بدأ ينتشر في العالم المسيحي في النصف الثاني من القرن الرابع وخلال القرن الخامس، وتبنّته معظم الكنائس المسيحيّة في القرن السادس. أما في الشرق فبدأ انتشار عيد الميلاد في ٢٥ كانون الأول في مدينة قبادوقيا ثم في إنطاكيا قبل العام ٣٨٠ (Ouru, 1982, 385 – ٣٨٦). وتبنّته معظم الكنائس المسيحيّة في الشرق، فيما ظلّت بعضها تعتمد تاريخ ٦ كانون الثاني مثل الأرمن

الأورثوذكس والأقباط وغيرهم الذين يعدّون هذا اليوم هو عيد المعموديّة التي تمثّل الولادة الروحيّة الحقيقية (فريحة، ١٩٩١، ص ١٦-١٧).

١ – ٣ – عيد القدّيسة بربارة

أشار شيخو في إطار جوابه على أسئلة القرّاء إلى عيد القدّيسة بربارة في سورية (شيخو، ١٨٩٨، د، ص ١١٣١-١١٣٥)، وكتب ما يأتي: " **كتب لنا جناب عبد الله بك شرَّ ما حرفُه: اعتاد السوريون أن ليلة عيد القديسة بربارة باللهو والطرب وأكل الأطعمة النفيسة والحلويات المختصة بهذه الليلة فما هو منشأ هذه العادة وهل هي جارية فقط في سورية أم في سائر البلاد المسيحية ومن أي زمن نشأت في تلك الليلة عادة التكحل الشنيعة المضرّة وهل طواف أولاد المحلة على البيوت قديم أم حديث وما سبب تجلببهم بالملابس الهزلية والقبعات المختلفة الألوان**"(شيخو، ١٨٩٨، د، ص ١١٣١).

ذكر الأب شيخو انه من الأفضل أن نسرد ترجمة القدّيسة بربارة وهي "**من أعظم الشهيدات العذارى اللواتي يفتخر بهنّ الشرق المسيحي لكنها قد أصابها ما أصاب كثيرًا من مشاهير الرجال الذين اختلبوا عقول البشر بصفاتهم العديدة ومزاياهم الفريدة وطبّقت أخبارهم أقاصي المعمورة. فلعظم هيبتهم في النفوس ترى الناس يتقوّلون فيهم الأقاويل العجيبة وينسبون إليهم الأمور الغريبة حتى لا يكاد أصحاب النقد يفرزون بين أخبارهم الصحيحة وما عُزي إليهم من الأقاصيص المختلفة الفريّة. وكذا جرى للقديسة التي نحن بصددها فأن ما أبدته من الشهامة والبسالة في مقاساة ضروب العذاب لتذبّ عن حقوق دينها رغما عن صغر سنها ولُطف بنيتها وغضارة عيشها عمل في قلوب الجمهور فاستباها. ولذلك انتشر اسمها في الآفاق وتعددت فيها الأقاويل**" (شيخو، ١٨٩٨، د، ص ١١٣١-١١٣٢).

اعتبر شيخو أن هنالك عدة أقوال في مكان مولدها منهم من قال إنها ولدت في نيقوميديا، وغيرهم في عين شمس (Héliopolis) بمصر، وغيرهم "يزعم"أنها ولدت في بعلبك وآخرون في إيطاليا. وكذلك يختلف المؤرّخون في تفاصيل أخبارها، فمنهم من رأى أنها نشأت في أوائل القرن الثالث وتأدّبت على أوريجانس الملفان الشهير،

واستشهدت في عهد الملك مكسمينوس (المتوفي سنة٢٣٨)، وناقضهم غيرهم فرأوا أنها استشهدت في أيام ديوكلسيان (٢٤٨–٣٠٥). وكلهم يسترسلون في وصف العذابات التي تعرضت لها والمعجزات التي صنعتها. وبعد عرض النظريات المختلفة حول سيرتها، قال لويس شيخو: "**إذا عرضنا شهادات التاريخ بعضها على بعض وانتقينا فيها ما نراه أقرب إلى الصواب فيكون لباب ترجمة القديسة بربارة كما يلي أنها ولدت في نيكوميدية من أبوين عريقين في الحسب والنسب وكان أبوها ديسقورس من عَبَدَة الأوثان بيد أنه خرّج ابنته بكل آداب ذلك العصر. ولما كانت بربارة ثاقبة العقل متوقّدة الفهم لم تلبث أن تدرك بطلان عبادة الأصنام وتشمئز من فساد أخلاق المتديّنين به وأتاح لها الله الاجتماع ببعض أرباب النصرانيّة فأخذت عنه مبادئ الدين القويم وثبّتها في دينها ما رأته في نصارى ذلك العصر من الثبات على أنواع المحن. فلمّا علم بأمرها أبوها تصدّى ليثنيها عن عزمها والتجأ تارة إلى الوعد وتارةً إلى الوعيد وحملت به فظاظة الطباع إلى أن يسوقها إلى الحاكم مرقيانوس. فحاول الحاكم أن يستعطف خاطرها**" (شيخو، ١٨٩٨، د، ص ١١٣٢)، ولكنها لم تترك مسيحيّتها، فأمر بتعذيبها وكان أبوها يحضر آلام ابنته ولا يحرّك ساكنًا، بل طلب إلى الوالي بأن يتولّى بنفسه قطع رأسها بالفأس. إلا أن الله انتقم منهما بأن أصيبا بصاعقة قتلتهما (شيخو، ١٨٩٨، د، ص ١١٣٢–١١٣٣).

وما إن شاعت أخبار القدّيسة بربارة في المشرق حتى أقبل المؤمنون على إكرامها، وبنوا على اسمها الكنائس. وفي القرون الوسطى نقل الصليبيون قسمًا من ذخائرها إلى البندقية وإلى روما فانتشرت عبادتها في الغرب. وذكر لويس شيخو أن المسيحيّين في الغرب يدعون باسم القدّيسة بربارة ويلتجئون إلى حمايتها، حيث يكرّمها أصحاب الحِرَف والصناعات الخطرة، وكل من يخاطرون بحياتهم، والرماة ومن يلعب بالكرة والصولجان (شيخو، ١٨٩٨، د، ص ١١٣٣).

أما أهل المشرق فكانوا يحتفلون بعيد القديسة بربارة بجلبة عظيمة، وقد امتاز بينهم البيروتيّون كما شهد صالح بن يحيى في كتاب تاريخ بيروت في أواسط القرن الخامس عشر، ونسب شيخو معلومته إلى جريدة المشرق .

---

[٥] اعتمد لويس شيخو على نص من كتاب تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، نُقلت مُقتطفات منه في مجلة المشرق، وفيه إشارة مختصرة إلى القديسة بربارة في بيروت. راجع: (شيخو، ١٨٩٨، هـ، ص ٨٣– ٨٦).

وكان بعض الرحّالة من القرن الخامس عشر قد أشاروا إلى عيد البربارة في بيروت، ومن أبرزهم الراهب الفرنسيسكاني فرنسيسكو سوريانو (Francesco Suriano) الذي أقام في بيروت أربع سنوات (١٤٨٠-١٤٨٤)، بعد حوالى ٤٥ سنة من وفاة صالح بن يحيى، وأشار بشكل واضح إلى تعايش المسيحيّين والمسلمين في بيروت، وتحدث عن مشاركة المسلمين المسيحيّين في الاحتفال بعيد القديسة بربارة في ٤ كانون الأول (Suriano, ١٩٨٣, ١٧١ – ١٧٤). إلا أن شيخو لم يعتمد على الرحّالة ولم يتحرَّ عن تاريخيّة عيد البربارة.

وذكر شيخو أن أهل دمشق وحلب يتغنّون إلى يومنا بأغنية عاميّة في مديحها. ومن عادات أهل الشام أنهم يتّخذون ليلة عيدها التي تُدعى البسّيّة حلويات وقطائف ويسلقون القمح، ويجتمع الأصحاب والأقارب في البيوت ليحيوا تلك الليلة. وفي سواحل الشام ولبنان يجتمع بعض الشبّان ويختارون بينهم واحدًا يسوّدون وجهه ويلبسونه ثيابًا هزلية ويطوفون به على البيوت ليمدّهم أصحابها ببعض الدريهمات أو الطعام.

ويُمكن تقسيم مقال شيخو عن عيد القديسة بربارة والأعياد المرافقة له إلى قسمين:

- تضمّن القسم الأول معلومات تاريخيّة عن سيرة القدّيسة بربارة أوردها شيخو من دون ذكر مصادره ومراجعه، بل عرض نظريّات مختلفة من دون توثيقها.
- تضمّن القسم الثاني عادات أنتروبولوجيّة كان سائدة في عصره، وصفها شيخو بطريقة سلسلة وواضحة. فقّد فسّر مظاهر التعبد لها، واعتبر أن أصلها يعود إلى القرون السالفة، وأن المؤمنين "**اتّخذوا في أفراحهم ما رأوه ممثلًا لأخبار الشهيدة القديسة فدلّوا على استنارتها بنبراس الإيمان بالتحكل وعلى مجاهرتها بدينها بإيقاد الشموع وعلى ثباتها في دينها وسط العذاب بسلق القمح، وعلى ظفرها بالأفراح السرمدية بالحلويات والقطائف. أما لبس المسوح والطواف على البيوت في هذه الحالة فلعله يراد به تمثيل خَدَم الحاكم وأعداء الشهيدة الذين اعنتوا بربارة وطافوا بها في ساحات البلدة ليسيموها الهوان قبل قتلها، كما يُذكر في أعمال استشهادها**" (شيخو، ١٨٩٨، د، ص ١١٣٤-١١٣٥).

ويلفت نظرنا في المقال أن الأب لويس شيخو اعتمد مصطلحات جغرافيّة متعددة من دون أن يُحدّد امتدادها الجغرافي بشكل دقيق. اعتمد في مطلع المقال عبارة "سوريّة" ليردّ على السؤال عن عادات السوريّين في عيد

البربارة، ثم استخدم عبارة أهل المشرق ومنهم البيروتيّين. كذلك استخدم تعبير "أهل الشام" وسواحل "لبنان". ولا نستغرب اليوم هذا الاختلاف في استخدام التعابير الجغرافيّة، فبيروت كانت مركز ولاية خاضعة للعثمانيّين، وجبل لبنان يخضع للمتصرفيّة، ولم تكن المصطلحات الجغرافيّة في مقالاته تعبّر عن دول مستقلة سياسيًا أو حتى طامحة إلى الاستقلال. أما استخدام تعبير سورية فجاء ترجمة لعبارة Syria الواردة في النصوص الأجنبيّة.

١ – ٤ – عيد الغطاس

ترك لويس شيخو في السنة الثالثة من مجلة المشرق سنة ١٩٠٠، ردودًا ومقالات عدّة ومخطوطات عربيّة ومقاطع من كتب حقّقها ونشرها بنفسه. منها ردّ على مقال نُشر في المنار (ص ٢٦٣) يعتبر مؤلّفه بطرس قندلفت أن عيد الغطاس لم يكن معروفًا في الغرب بل انتقل إليها من الشرق، فكان ردّ لويس شيخو "**أن كنائس الغرب كانت منذ بدء النصرانيّة تعيّد هذا العيد مثل كنائس الشرق بيدَ أن الشرقيين كانوا يحتفلون به في اليوم السادس من كانون الثاني ويجمعون بين عيدَي ميلاد الرب وغطاسه. أما الكنائس الغربيّة فأنها كانت تعيّد عيد الميلاد في ٢٥ كانون الأول وتبقي عيد الغطاس لليوم السادس من ك ٢. ثم أخذت كنائس الشرق تتبع الكنيسة الرومانيّة وتعيّد عيدًا خاصًا لعيد الميلاد**" (شيخو، ١٩٠٠، أ، ص ١٤٠). ثم أثبت لويس شيخو أن عيد الغطاس كان شائعًا في الغرب في أوائل عهد النصرانيّة، حتى أن يوليانوس الجاحد (٣٣١–٣٦٣) اضطر إلى حضور العيد، وختم شيخو "**إن الكنائس الغربية تذكر في هذا النهار ليس غطاس الرب فقط كما يفعل الشرقيّون بل ظهوره المثلّث أولًا للأمم بسجود المجوس وثانيًا لليهود بغطاسه وثالثًا لتلاميذه بتحويل الماء خمرًا في عرس قانا الجليل**" (شيخو، ١٩٠٠، أ، ص ١٤١).

١ – ٥ – عيد الشعانين

تناول لويس شيخو في دراسة تاريخيّة أحد الشعانين ورتَبَه (شيخو، ١٩٠٥، أ، ص. ٣٣٧-٣٤٤)، ورأى أن أصل "**حفلة الشعانين**" ترتقي إلى ما ورد في الإنجيل المقدس عن دخول المسيح إلى أورشليم قبل موته بخمسة أيام. ثم أشار إلى قِدَمِ عيد الشعانين في الكنيسة ذاكرًا أنه شاع أولًا في كنائس الشرق ومنها انتقل إلى الكنيسة الغربيّة. "**وكان نصارى القرون الأولى إذا وجدوا في بعض الكنائس الخاصة عادة محمودة استعاروها من إخواتهم واتخذوها دأبًا، فدخلت على هذا المنوال في الشرق عادات وطقوس سبق إليها الغربيون والعكس بالعكس**" . وأقدم شاهد على الشعانين ما ورد في الرحلة المنسوبة إلى القديسة سلفية المكتوبة بين عامَي ٣٨٥ و٣٨٨ وقد ذكرت أنها حضرت رتبة في أحد الشعانين على جبل الزيتون ووصفتها بطريقة شائقة. ثم جاء وصف عيد الشعانين في القرن الخامس "**في ترجمة القديس أفتيموس كما رواها كيرلّوس السيثوبولي الذي سبق ذكره في المشرق (٨: ٢٣٨)** "[٧].

وذكر شيخو من الشواهد القديمة ما جاء في دواوين العرب، ومنها قول النابغة في مدح غسّان:

رقاقُ النعال طيّبٌ حُجُزاتهم يحيّون بالريحان يوم السباسب

قال مفسّرو ديوانه يريد عيد النصارى المعروف بالسعانين. وهذا دليل على أن الغسّانيّين كانوا يحتفلون بهذا العيد منذ ذاك العهد. وفي أواخر القرن السادس عينه ورد لأول مرة ذكر الشعانين في الكنيسة الغربيّة في

[٦] (شيخو، ١٩٠٥، أ، ص ٣٣٩) ؛ وقد أشار شيخو إلى الفكرة عينها في **مجلة المشرق** ١، ص ٣٣٣؛ و **مجلة المشرق** ٥، ص ١٧٧.

[٧] هو أسقف يوناني وُلد حوالى سنة ٥١٤ ثم ترهب وقضى سنين من حياته في دير مار سابا إلى أن عُيّن أسقفًا على مدينة سيزوبوليس (Scythopolis) في عبر الأردن. ومن تآليفه ترجمتا الناسكين مار أفتيموس ومار سابا، وقد طُبعتا أكثر من مرة في أصلهما اليوناني. (كُراف ، ١٩٠٥، ص ٢٥٨).

كتاب الأسرار للقديس غرغوريوس الكبير في جملة صلاة كان يتلوها الكاهن في أحد الشعانين" (شيخو، ١٩٠٥، أ، ص ٣٣٩).

ثمّ ذكر شيخو أسماء هذا العيد في مختلف الكنائس (شيخو، ١٩٠٥، أ، ص ٣٣٩–٣٤٠)، وأشار إلى الرتب الكنسيّة في أحد الشعانين في أورشليم والكنيسة القسطنطنيّة والكنيسة الرومانيّة في سابق الزمان. وذكر أن كل الكنائس الشرقيّة توزّع في عيد الشعانين الأغصان المباركة وتطوف في الكنيسة أو في خارجها وتُشيد بانتصار المسيح وخروج بني إسرائيل لملاقاته في أورشليم، ويلبس الأحداث ملابس العيد ويُمنحون بركة خاصة.

وخصّ شيخو الموارنة بالإشارة إلى احتفالهم بالعيد برونق طواف الأطفال، ونقل ما أخبره عنهم ماغري في المشرق "**إنهم كانوا في هذا اليوم يأتون إلى الكنيسة بشجرة كبيرة من الزيتون ثم يباركونها ويعطونها لمن يدفع فيها ثمنًا أوفر بصفة حسنة. ثم يجعل مقتنيها ابنهُ أو أحد الصبيان ممَّن يحبّ فوقها ثمّ يحمل الشجرة هو وأهله بينما يُطلق الحضور أصوات الفرح. وإذا تمّ الطواف هجم القوم على الشجرة وأخذوا منها غصنًا يحفظونه كبركة**" (شيخو، ١٩٠٥، أ، ص ٣٤٢). كذلك وصف العيد عند الأقباط معتمدًا على ما جاء في كتاب يوحنا ابن زكريا المعروف بابن السباع في الجيل الثالث عشر . وختم شيخو مقالته بالإشارة إلى العادات المُرافقة للعيد، وكذلك أقوال الشعراء والخطباء فيه، واقتطف من نصَّين باللغة العربيّة: الأول من خطبة إيليا الثالث بطريرك الكلدان المعروف بأبي الحليم بن الحديثي من كتبة القرن الثاني عشر، والثاني من أبيات من قصيدة المطران جرمانوس فرحات (شيخو، ١٩٠٥، أ، ص ٣٤٣–٣٤٤).

١ – ٦ – عيد الصليب

تناول شيخو عيد الصليب (شيخو، ١٩٠٥، ب، ص ٨٥٤–٨٦١)، فأشار في بداية مقالته إلى أهميّة الصليب في عقيدة المسيحيّين منذ عهودهم الأولى، إلى أن ألهَمَ الله القديسة هيلانة أم قسطنطين الكبير فسارت إلى القدس،

[٨] يمكن الاطلاع على عيد الشعانين عند الأقباط، شيخو(١٩٠٥، ص ٣٤٢–٣٤٣).

واستدلّت على موضع القبر المقدّس، فنجحت في اكتشاف عود الصليب "**وتحقّقت صحته بقيامة ميت وُضع عليه. وكان ذلك في اليوم ١٤ من شهر أيلول من السنة ٣٢٦ كما ورد في الرحلة المنسوبة إلى القديسة سلفيا وأثبت ذلك القديس أندراوس الأقريطشي والرحّالة ثاودوسيوس**" (شيخو، ١٩٠٥، ب، ص ٨٥٦).

وبعد هذا الاكتشاف نمت ممارسات تكريم الصليب في العالم المسيحي، ولا سيّما بعد أن وُزّعت منه قطع صغيرة بين الكنائس أرسلها أسقف أورشليم للأمراء والأساقفة، وقد شهد على ذلك القدّيس كيرلس الأورشليمي في تعليمه الرابع العدد العاشر. وبعد عشر سنوات على الاكتشاف أقامت القدّيسة هيلانة كنيسة عظيمة فوق قبر المسيح، ودعتها "شهادة القيامة" ودعت الأساقفة من كل الأرجاء ودشّنت الكنيسة بحضور عدد وافر من الأساقفة الذين وفدوا إلى المدينة المقدسة بأمر الملك قسطنطين بعد انتهاء مجمع صور. وقد تمّت الاحتفالات في ١٣ أيلول سنة٣٣٥ وعُرض الصليب المقدس عاليًا فهتف الشعب كيرياليسون أي يا رب ارحم. فدُعي ذلك اليوم يوم "تجديد كنيسة الصليب"، **وصار العيدان مذاك يتجددان في كل سنة "أعني في ١٣ أيلول عيد تدشين كنيسة القيامة وفي ١٤ عيد الصليب**". ومنذ ذلك الحين شاع عيد ارتفاع الصليب وهذا الاسم ورد في الآثار الكنسية القديمة وقد ذكر شيخو بعضها في حاشية المقال (شيخو، ١٩٠٥، ب، ص ٨٥٦).

ولم يبلغ عيد الصليب رونقه إلا في عهد الإمبراطور البيزنطي هرقل، فقد هاجم الملك الفارسي كسرى أنوشران مملكة الروم ووصل سنة ٦١٠ إلى القدس واستولى على الصليب المقدس. وبقي الصليب في قبضة الفرس حتى قام هرقل بحملة عسكرية نجح خلالها بتحقيق انتصار كبير، فردّ الفرس وأعاد الصليب المقدس سنة٦٢٨ إلى القسطنطنية وكان ذلك يوم ١٤ أيلول اليوم المُخصّص سابقًا لذكرى ارتفاع الصليب، وجرت الاحتفالات في العالم المسيحي في الشرق، وبلغ الخبر كنائس الغرب فشاركت المسيحيّين الشرقّيين في أفراحهم واحتفلت بأعياد عظيمة . ثم ذكر شيخو الاحتفالات التي تجري في العالم المسيحي بمناسبة عيد الصليب معتمدًا على مصادر عدّة، ووصف كشاهد معاصر العادات في بلاده، فكتب ما يأتي: "**ومن العادات المألوفة في مدن الشام وجبل لبنان إيقاد النيران**

[٩] لمزيد من المعلومات حول انتصار هرقل والاحتفالات المُرافية يمكن مراجعة: شيخو(١٩٠٥،. ب، ص ٨٥٨-٨٥٩).

وإطلاق الأسهم الناريّة في الجوّ إلى غير ذلك من شارات الفرح ودلائل الابتهاج. ومنهم من كان يرسم في ذلك اليوم صورة الصليب على بعض أعضائه وشمًا بالنورة" (شيخو، ١٩٠٥، ب، ص ٨٦٠). وتستمر عادات إضرام النيران في عدد كبير من القرى اللبنانيّة في مناسبة عيد الصليب حتى يومنا هذا.

١ – ٧ – صوم نينيوى في الكنائس الشرقيّة

أشار شيخو إلى صوم نينوى في مقاله الوحيد الذي كتبه بالاشتراك مع كاتب آخر هو يوسف أفندي غنيمة البغداي. أشار المؤلّفان إلى صوم نينوى وأصله، واعتبرا أن السريان والكلدان يرحّبان في كلّ سنة قبل حلول الصوم الكبير بثلاثة أسابيع بصوم يدوم ثلاثة أيّام أوَّلها الاثنين وآخرها الأربعاء، يدعونه صيام نينوى، أما نسبتهُ إلى نينوى ففيه إشارة إلى توبة المدينة التي جاء تفصيل خبرها في سفر النبي يونان الذي أنذر أهلها بغضب الله، وهدّدهم بدمار مدينتهم، فتابوا إلى الله لمن خلال الصوم والصلاة، فقبل الربّ توبتهم وغفر خطاياهم. وذكرا أن هذا الصيام كان يعمّ الكنائس الشرقيّة باستثناء الملَكيين، ويمارسه السريان اليعاقبة والكلدان والسريان الكاثوليك والأرمن والأقباط، وكان الموارنة يمارسونه سابقًا وأبطلوه مطلع القرن السابع عشر .

وختم مؤلّفا المقال بالإشارة إلى عادات نصارى العراق في هذا الصوم "**وهو من الغرابة**" وذلك أنهم يصنعون الحلوى "**ويلتّون السويق ويبيتونه من مساء الأربعاء إلى صباح الخميس نذرًا للخضر، ويقولون إنه مار الياس أو مار جرجس أو مار بهنام ويزعمون أنه يأتي ليلًا، وأنه شيخ عتيق الأيام ذو لحية طويلة يمتطي جوادًا وفي يده عصًا، وأنه مغرمٌ بالزينة ولذلك يضعون له بجانب الحلوى مشطًا ومرآة وكحلة ولجواده باقة بقدونس. وعند الصباح يتهادون الحلوى... وما يفعله السريان والكلدان للخضر يعمله الأرمن لمار سركيس**" (شيخو، غنيمة البغداي، ١٩٠٦، ص ١٧٧). يسترعي انتباهنا ربط مسيحيّي العراق عيد مار الياس بمار جرجس والخضر،

[١] لمزيد من المعلومات عن أصل صيام نينوى وانتشاره في الكنائس الشرقية يمكن مراجعة: (شيخو، غنيمة البغداي، ١٩٠٦، ص ١٧١–١٧٧).

وسنعود إلى ذكر العلاقة بين الشخصيّات الثلاث في إطار دراستنا لمقالة لويس شيخو حول سيرة مار جرجس والأعياد المُرافقة له.

٢ – ملامح من تاريخ الشرق الأدنى القديم

٢ – ١ – الوحدانيّة في مصر وبلاد ما بين النهرين وفينيقيا

ترك لويس شيخو في السنة السابعة من أعداد مجلة المشرق سنة ١٩٠٢، ردودًا ومقالات عدّة ومخطوطات عربية ومقاطع من كتب حقّقها ونشرها بنفسه. ومن الردود نص بعنوان "**التوحيد والوحي**" ردّ فيه على مجلة المُقتطف بطريقة عنيفة مُنصِبًا نفسه[١] مُدافعًا عن العقيدة الكاثوليكيّة (شيخو، ١٩٠٤، أ، ص ٢٣٠-٢٣٦).

ففي ردّه عرض شيخو باختصار مضمون مقال المُقتطف من دون تسمية اسم كاتب المقال، بل انتقد المجلة على اعتبار أن أصحابها لا يؤمنون "**بالوحي الإلهي والأسفار المنزلة. فتارةً يدسّ كتّابها هذه المزاعم الواهنة في جملة مقالات لا يُشعر ظاهر دسمها بباطن سمّها كأقوال له في سبنسر يطرئ مذهبهُ الدروينى في النشؤ والارتقاء ومخطِّئًا أقوال التوراة كأن سبنسر إله الحكمة بلغ من العلم ما لم يبلغه أنبياء الله**" (شيخو، ١٩٠٤، أ، ص ٢٣١). بعد انتقاده مبادئ المدرسة الداروينيّة، عرض لويس شيخو مضمون المقالة واختصرها بثلاث قضايا هي:

١ – إنّ الشعوب الأولى لم تعتقد بوحدانيّة الله بل كانت جميعها مُشركة.

٢ – إنّ عقيدة التوحيد تحقّقت نتيجة ترقّي العقل البشري على مرّ الأعصار.

٣ – إنّ الشعب العبراني لا يتميّز من غيره إلا بأنّه سبق الشعوب الأخرى إلى التوحيد (شيخو، ١٩٠٤، أ، ص ٢٣١).

---

[١] أنشأ يعقوب صروف وفارس نمر مجلة المقتطف في الشام العام١٨٧٦ قبل انتقالها إلى القاهرة، صدر أول عدد العام١٨٧٦، أما صدورها المنتظم فبدأ العام١٨٨٨. وكانت مجلة علميّة صناعيّة وزراعيّة.

ثم بدأ شيخو بتفنيد القضايا الثلاث، فاعتبر أن الشعوب الأولى كانت موحِّدة ولم تُخلق في حالة الهمجيّة، وليس أصل الإنسان حيوان كون الله هو خالق الكائنات، وكوّن الإنسان من العدم، وجعله على صورته ومثاله بما أفاض فيه من العقل. واعتبر شيخو أن كلامه يُثبته الكتب المُقّدسة ولا يستطيع المقتطف إنكارها. كما تُثبت البقايا الأثريّة العظيمة أن الإنسان خُلق بحالة المعرفة التامة. وأكّد شيخو أن الآثار القديمة المُكتشفة حديثًا في مصر وبابل وشوشن من الكتابات الهيروغليفيّة[٢] والمسماريّة تبيّن أن الشعوب[١] القديمة لم "**تبتدئ بالشرك والتوثّن**" بل كانت ديانتها الأولى وحدانية الله. واتّخذ ثلاثة أمثلة ليُثبت نظريته، وهي الآتيّة:

ديانة المصريّين الأولى: أكّد أن المصريّين قبل موسى بزمن طويل آمنوا بالإله الأحد ليس معه إله آخر وهو الخالق لكل الكائنات ومبدع السماء والأرض وما فيهما، وقد ذكر مراجع علميّة، في طليعتها "**دي روجه إمام العلماء في العاديات المصرية في كتابه عن ديانة المصريين الأقدمين المطبوع في باريس سنة ١٨٦٩ ص ١٢ و ١٧ و٢٦**". أما الشرك فلا يظهر إلا بعد ذلك أي حوالى ٢٠٠٠ سنة ق.م. كما اعتمد شيخو على ماريت الذي ذكر أن المصريّين آمنوا بإله واحد غير مخلوق ومحجوب "**في أعمال جوهره غير المنظور وهو خالق السماء والأرض لم يُخلق شيء إلا به**" ولكن شيخو لم يذكر اسم كتاب ماريت . كما اعتمد على مسبرو[٣] مؤلف كتاب "**تاريخ الشعوب الشرقية القديم، الطبعة الخامسة ص ٢٧**" (Maspero, 1876) الذي أشار أيضا إلى إله مصري أحد قائم بذاته وهو أب الآباء وأمّ الأمهات الوحيد الذي لم يُخلق ولم يولد (شيخو، ١٩٠٤، أ، ص ٢٣٣). وبغضّ النظر عن صحة معلومات شيخو التي يطغى عليها الطابع التعميمي والإيديولوجي، فإنّ ما يلفت النظر

---

[١] شوشن هي مدينة سوسا (Suse) الواقعة في إيران اليوم، بدأت الحفريات فيها العام ١٨٥١؛Amiet(2005).p.2096

[١] هو أوغست ماريت (Auguste Mariette) الذي نشط في اكتشافاته الأثرية في مصر، ومن أبرزها اكتشاف معبد "سيرابيس" في سقّارة الذي كانت ترقد في أقبيته مومياءات ثيران أبيس المقدّسة. وقد عيّنه الخديوي سعيد مدير الآثار في مصر العام ١٨٥٨، ولعب دورًا مهمًا في الحدّ من أعمال نهب الآثار المصرية، وفي تأسيس المتحف المصري لحفظ الآثار المُكتشفة. (سركيس، ٢٠٠٣، ص ٨٨).

[١] مسبرو (١٨٤٦ – ١٩١٦) (Gaston Maspero) هو المؤرخ الفرنسي الذي تخصص في تاريخ الشرق القديم، ويُعدّ مؤسس المدرسة الأثرية الفرنسية في القاهرة، ومن أبرز إنجازاته بين عامَي ١٨٨١ و١٨٨٥ اكتشاف عدد من أهرام الدولة القديمة، وعلى عدد من المومياءات ومن أبرزها مومياء رعمسيس الثاني. (سركيس، ٢٠٠٣، ص ٨٩)

هو ذكره لثلاثة من أبرز علماء الحضارة المصرية في عصره، مع العلم أن مؤرّخين آخرين وضعوا دراسات مهمة في تلك المرحلة عن تاريخ مصر القديم [١].

ديانة البابليّين: اعتبر شيخو أنها كانت توحيديّة أيضًا، وقد اعتمد على كتاب اللغّات الساميّة لرينان الذي يصفه بالزنديق، ولكنه ذكر أن غايته في ذلك إبطال الوحي وجعل "**التوحيد كخاصّة طبيعيّة للساميّين**" خلافًا للآريّين المُشركين، "**وفي قوله على الأقل دليل على أن الساميّين لم يكونوا في أوّل الأمر مُشركين**". وكذلك اعتمد شيخو على ما كتبه لانرمان "**في تاريخه الشهير للشعوب الشرقية القديمة: إن ديانة أشور وبابل في أمورها الجوهرية شبيهة بدين قدماء المصريين أو بالحري دين كل الشعوب القديمة**" (شيخو، ١٩٠٤، أ، ص ٢٣٣-٢٣٤).

اعتمد شيخو على إرنست رينان (Ernest Renan) ليثبت نظريته القائلة في أن التوحيد سبق الشرك، كما اعتمد على فرانسوا لينرمان (François Lenormat) وكتابه الذي وصفه بالشهير. وخلافًا لإشارته إلى مراجع الحضارة المصريّة، فإنّ ذكره مراجع حضارة بلاد ما بين النهرين تُعدّ أضعف من سابقتها [٢].

ديانة الفينيقيّين القديمة: اعتبر أنها كانت توحيديّة معتمدًا على "**المسيو دي فوكويه أكبر العلماء بالعاديّات الفينيقيّة**" الذي رأى أن تعدّد المُدُن الفينيقيّة لا يعني تعدّد الآلهة، بل إن بعل صور وبعل صيدا وبعل طرسوس وأمثالها ليس "**إلا وجوهًا متعددة للإله العظيم الوحيد حسب أمكنة عبادته وهو البعل الأكبر الذي ربما دُعي باسم ملكرت أو باسم الملك (Moloch)**" (شيخو، ١٩٠٤، أ، ص ٢٣٤).

---

[١] يمكن مراجعة تطور الدراسات المصرية: (سركيس،٢٠٠٣، ص. ١٢٤- ١٣١، ١٢٣-١٣١)؛(Grimal, 1988, P.11-20).

[٢] حول تطور المكتشفات الاثرية في بلاد ما بين النهرين حتى مطلع القرن العشرين يمكن مراجعة: (سركيس، ٢٠٠٣، ص ٩٣،٩٧).

لم يعتمد شيخو على أبرز المراجع الفينيقيّة المعروفة حتى مطلع القرن العشرين [٧] ، ولكن ما يلفت نظرنا أنه نقض ما ورد في مراجع كاثوليكيّة كانت تنظر إلى الفينيقيّين كأبرز المُفسدين في الأرض ويتهمّونهم بأنهم أول من بثّ الشرك في الدّين، ولعل من أبرز هؤلاء الأب مرتين اليسوعي (١٨٢٥ – ١٨٨٠) [٨] صاحب كتاب تاريخ لبنان القديم الذي كتب فيه ما يأتي: "**ومن المحقق أن فينيقية القديمة أصابت منزلة رفيعة في التمدّن الأول. فلو أنها حافظت على صحّة التقليدات الأوّليّة ونشرت تعاليم الحقيقة الخلاصيّة لكانت منزلتها أرفع، إلا أنها بدلا من ذلك قد بثّت في كل مكان حكايات شهوانيّة وعبادات مفسدة تنصب الاختراع حقيقة والشهوة دينا وكرامة لآلهة تستوجب كل هزءٍ واستحقار. ولكننا مع ما رأينا للفينيقيّين من الأضاليل والأمور المنكرة، نتعزّى لما أنهم قد بثّوا بين الأمم البربريّة بعض تقاليد بل بعض معتقدات مستعارة من شعب الله. وعلى ذلك فإنهم تسببوا مع نشر حكاياتهم في حفظ هذه التقليدات الإلهية التي كانت في الأصل شائعة بين جميع الأمم وقد وُجدت في جميع جهات الأرض مع اختلاف قليل أو كثير**"(اليسوعي، ١٩٨٦، ص ٢٠٩).

ثم فنّد لويس شيخو القضيّتين الثانيّة والثالثة؛ ففي الثانيّة، اعتبر أن آثار الأمم القديمة تثبت أن الديانات القديمة كانت توحيديّة في بداياتها وقريبة من العقل، ثم أصبحت مُشركة مع توالي الأيام والتقدّم الحضاري، وردّ بما يلي: "**نتعجب من المقتطف كيف يُغضي عن كل هذه الشواهد ليبني مقالة على شفير هارٍ وذلك رغبة في مضادة الأسفار المقدَّسة. كلّا يا صاح، إنّ التمدّن والحضارة وأسباب العمران ليست وحدها كافية لنشر عقيدة التوحيد. وكذلك كل حكمة الفلاسفة الأقدمين لم تقوَ على إقناع مدينة واحدة بوحدانية الله**" (شيخو، ١٩٠٤، أ، ص ٢٣٥). أما في القضيّة الثالثة فأكّد شيخو أن الكتب المقدسة تثبت أن الشعب اليهودي هو مختار، وقد ميّزه الله عن سائر الشعوب القديمة، وردّه إلى الإيمان القويم كل ما جنح نحو التعدّديّة والأوثان من خلال أنبيائه. أما كلمة ألوهيم في

---

[١] يمكن الاطلاع على أبرز مؤرخي القرن التاسع عشر من الذين كتبوا عن تاريخ الفينيقيين، وأبرز المواضيع التي عالجوها في: (أبي فاضل،٢٠٠١، ص ٦٤ . ٦٥، ١٢٦ . ١٣٢، ١٨٧ . ١٨٨)؛ ويمكن الاطلاع على أبرز المنشورات المكتوبة في القرنين التاسع عشر والعشرين في:.(M.G. Amadasi Guzzo,1995, p. 28 – 30)

[١] حول نظرة الأب لامنس اليسوعي إلى تاريخ الفينيقيين يمكن مراجعة:(أبي فاضل، ٢٠١٤، ص ١٤– ٣٩).

التوراة فلا تشير إلى تعدّديّة إلهيّة، فإنّ ميم الجمع لعلها استُخدمت "**لمجرد التفخيم**". وختم شيخو أن إشارة كاتب المقال إلى عصبيّة اليهود القوميّة وفطنتهم فهي ليست "**سببًا لاعتقادهم بالتوحيد بل نتيجه له**" (شيخو، ١٩٠٤، أ، ص ٢٣٦).

٢ – ٢ – بنو إسرائيل جاؤوا من مصر الفرعونيّة

ردّ شيخو في مقال بعنوان "**المقتطف والتوراة**" (شيخو، ١٩٠٠، ب، ص ٨٠٠-٨٠٤) على صاحب المقتطف الذي اعتبر أنه "ينفث السمّ في العقول"، وهو يتظاهر بأنه يكرّم التوراة ويحض المؤمنين على التمسك بها. ففي ردّ المقتطف على سؤال "**كيف يزعم العلماء أن جثة فرعون وُجدت مُحنّطة بعد أن أثبت الكتاب الكريم أن فرعون وكل جنوده غرقوا في البحر**"؟ اعتبرت أن الرواية التوراتيّة غير دقيقة، والعلماء لم يجدوا دليلًا على أن بني إسرائيل كانوا ساكنين مصر في العصر الذي يُقال إنهم كانوا ساكنين فيه.

اعتمد شيخو على مؤرّخين عدّة ليثبت أن العبرانيّين كانوا في مصر، ومنهم:

- الدكتور بيتري المشهور بالآثار المصريّة [١]، والعلّامة شاباس (Chabas) وهو من أكبر الأثريين المصريين، والأب يوسف أوتفاج من علماء اللغة المصريّة البارزين وكلّهم يؤكدون أن العبرانيّين كانوا في مصر.

ثمّ ردّ شيخو على المقتطف بالقول: "**أفتظن أنه لا يمكننا أن نعتبر سفر توراة موسى النبي بصفة كتاب علمي وكتاريخ صادق كبقيّة التواريخ القديمة؟ أو تزعم أن الوحي به ينزع عنه صفاته العلميّة أفلا تعلم أن الوحي لم يمنع كاتب السفر الإلهي أن يستعين بكتابات العلماء قبله ويأخذ عنهم أخبارهم الصادقة وينقل عنهم أقوالهم الثابتة. فما لك تريد أن تفصل الكتاب الكريم من العلم كأنه والعلم خصمان أو ضدّان يتنافيان في كل حين وآن. وزد على ذلك أن العلماء المشاهير لم يتركوا آية من أخبار الإسرائيليّين في مصر كما وردت في التوراة إلا وبيّنوا موافقتها التامة لأخلاق المصريين وعوائدهم وآثارهم المنقوشة لا تختلف عنها ذرّةً فأجمعوا على أن كاتب**

[١] هو العالم الانكليزي السير فلندرس بيتري (Petrie) الذي قاد سنة ١٨٩٥ حفريات عدّة في مصر، وله نظريّات علميّة ساعدت في تطوّر النظرة إلى التاريخ المصري القديم. (سركيس،٢٠٠٣، ص ١٢٧-١٢٨).

هذا السفر عاين بنفسه كلّ ما أُخبر به وهو أصدق شاهد عليها. ولذا ترى الكفرة أنفسهم مع إنكارهم للمعجزات يعتبرون توراة موسى مثل كتاب جليل وأثر تاريخي صادق" (شيخو، ١٩٠٠، ب، ص ٨٠٤). لم يعرّف شيخو بمراجعه ولا بأسماء كتبهم، ولكنه اعتبر أن المؤرّخين الذين ذكرهم يؤكّدون صحّة الرواية التاريخيّة التوراتيّة، وهذا يأتي في صلب الهدف الذي يدافع عنه.

٢ – ٣ – العيلاميّون

سُئل شيخو عن الدولة العيلاميّة من قِبل "أحد أفاضل الكهنة في حلب"، فجاء الجواب أن هذه الدولة هي من أقدم الدول المعروفة في العالم (شيخو، ١٩٠٥، ج، ص ١٠١٢)، جاء ذكرها في "**سفر التكوين وهي منسوبة إلى عيلام بن سام وأخي أشور (تك ١٠: ٢٢٤)**"، ملك أبناؤه قسمًا من البلاد الواقعة اليوم على تخوم بلاد العجم الجبليّة وكانت تشمل ناحيتين كبيرتين بلاد أنزان وبلاد شوشن. واختلطوا بشعوب غير ساميّة سوداء حاميّة ذات لغات مختلفة. وكان العيلاميّون يخضعون في الغالب للكلدان ويستقرّون أحيانًا تحت راية أمرائهم وملوكهم. وكانت أخبار العيلاميّين مجهولة إلى أن اكتشف تاريخها دي مرغان في حفريّات شوشن، وتبيّن أن لهم هياكل وكتابات على الآجر يرتقي بعضها إلى الألف الرابع ق.م. بينها كتابة للملك نارام سين يصف فيه انتصاراته سنة٣٧٥٠ ق.م. وشرائع حمورابي الشهيرة. جواب شيخو مبهَم، فلم نعرف من هم العيلاميّون، ولم نعلم إذا كان نارام سين قد ذكرهم في نقشه أو أنه منهم، علمًا أنه ملك سومري، وكذلك كان حمورابي ملكًا بابليًا.

ويعتقد العلماء اليوم أن بلاد العيلاميّين تقع في غرب وجنوب غرب إيران الحاليّة في إقليم عربستان (خوزستان). ويكتنف الغموض أصل العيلاميّين، فيرى بعض المؤرخين أنهم يمتّون بصلة قرابة إلى الأقوام الجبليّة القديمة التي كانت تقيم في الشمال الشرقي من بلاد عيلام، ومن تلك الأقوام الكوثيّون والكاشيّون. ويستند هؤلاء الباحثون في بناء رأيهم هذا على الصلة ما بين اللغة العيلاميّة ولغات تلك الأقوام. اعتمد العيلاميّون في بداية تاريخهم كتابة تصويريّة، ثم المسماريّة لكتابة لغتهم التي كانت مُستخدمة في كتابات الأخمينيّين، إلى جانب اعتمادهم الأكاديّة والفارسيّة القديمة. قامت عيلام التاريخيّة على اتّحادٍ شملَ مراكز عدّة أبرزها العواصم القديمة الثلاث: سوسه، إنشان، وشيماشكي. خضعت للسومريّين والأكاديّين والبابليّين، وبعد فترة من الغموض برزت الفترة العيلاميّة الحديثة

(بين٧٤٢ و ٦٣٩ ق.م.) التي انتهت بغزو جيش أشوربانيبال (٦٦٨-٦٢٧ ق.م.) سوسة وتدميرها سنة ٦٣٩ ق.م. فوضع حدًّا لدولة العيلاميّين [٢].

٣ – سيرة مار جرجس بين التاريخ والأسطورة

كتب لويس شيخو بمناسبة تذكار المئة السادسة عشرة لاستشهاد القديس جرجس (شيخو، ١٩٠٣، ص ٣٨٥-٣٩٥)، مقالة طويلة اعتبر فيها أن اسم هذا القديس لا يزال حيًّا في الأصقاع الشرقية. ثم بدأ بعرض سيرته، معتبرًا أن البابا "**جلاسيوس القدّيس**" أمر سنة٤٩٤ بفحص كتب عدّة كان ينشرها "**الأراطقة**" على حدّ تعبيره، أو يتداولها المؤمنون فينسبونها زورًا إلى الرُّسل أو إلى خلفائهم، فأمر باعتبار هذه التآليف غير قانونيّة. وكان من جملتها "**أعمال القديس جرجس واستشهاده. فيظهر من هذه الفتوى أن أخبارًا كثيرة بل خرافات عديدة عُزيت لهذا الشهيد مذ ذاك العهد العهيد**" (شيخو، ١٩٠٣، ص ٣٨٥).

دقيقة هي معلومة شيخو، فقد تردّدت كنيسة روما، في بادئ الأمر، بالاعتراف بقداسة مار جرجس، ورفض البابا غيلاسيوس (Gelasius) (ت. سنة ٤٩٦) التقاليد اليونانيّة والسريانيّة المُرتبطة بمار جرجس، على الرَّغم من أنّه اعترف بأنّ عددًا من المسيحيّين كانوا يكرّمونه كقدّيس، واعتبر أن تقديسه هو هرطقة ويمثّل، بنظره، صورة من زمن سابق (Migne, 1844, p. 157–64.).

وتناول شيخو ما ورد في نصوص المؤرّخين عن القديس جرجس، بدءًا بنصّ أوسابيوس القيصري "في الكتاب الثالث من تاريخه الكنسي"، الذي ذكر أن الإمبراطور الروماني ديوقلسيانوس قيصر علّق كتابًا على جدران البلاط الملكي في نيكوميديا ضد المسيحيّين، فتقدّم أحد القادة العسكريّين ومزّق هذا الكتاب، فتعرّض بسبب ذلك إلى ضروب العذاب، ولكنه احتمله مسرورًا ومات في سبيل إيمانه. واعتبر لويس شيخو أن أوسابيوس ولكتنسيوس كانا معاصرَين لديوقلسيانوس وكانا قريبين من نيكوميديا، وذكر أنهما سكتا عن اسم هذا الضابط الذي وقع استشهاده

[٢] يمكن الاطّلاع على مختصر تاريخ عيلام في: (Amiet ,٢٠٠٥, p. 774–775).

في السنة ١٩ لديوقلسيانوس أي سنة٣٠٣. إلا أن التقليد المتواصل بين مسيحيي الشرق أن هذا القائد هو القدّيس جاورجيوس أو جرجس، وأنه عاش في أيام ديوقلسيانوس واستشهد وعمره لا يتجاوز الثالثة والعشرين، وعليه كان مولده سنة٢٨٠. واعتبر شيخو أن البولنديين قد رجّحوا "**هذه الرواية في المجلّد الثاني عشر من تراجم الأبرار في تاريخ اليوم الثالث والعشرين من نيسان**". ثم استنتج أن بعض علماء عصرنا أخطأوا بأنهم نسبوا إلى الوهم والتخيلات مجمل أعمال القدّيس جرجس بل أنكروا وجوده، وهذا الكلام برأيه باطل (شيخو، ١٩٠٣، ص ٣٨٦).

لقد أشار أوسابيوس القيصريّ (عاش بين سنتَي ٢٦٠ و٣٤٠ م) فعلًا إلى ضابط نبيل رفض اضطهاد الإمبراطور ديوقليسيانوس للمسيحيّين فتمّ إعدامه. وكما ذكر شيخو، عاصر أوسابيوس ديوقليسيانوس ولم يأتِ على ذكرِ اسم هذا الضابط ولم يحدّد أصله ولا الأرض التي ولد فيها [١] [٢].

ثم عرض شيخو انتشار اسم القدّيس جرجس بعد استشهاده بقليل، وكان قسطنطين أول مكرمّيه وقد أمر بتشييد كنيسة لذكره في اللدّ في فلسطين ونقل إليها قسم من ذخائره، كما بنى كنيسةً أخرى على اسمه في القسطنطينية، ثم أشار إلى بناء كنيسة ثالثة على اسمه سنة٣٦٧ في حوران. واعتبر أن "**بلاد الكرج اتّخذت مذ ذاك العهد القديس جرجس كشفيعها الوطني بعد تنصّرها فدُعيت جيورجيا. وكانت تُدعى قبل ذلك باسم الهِلّسبنتوس**" (شيخو، ١٩٠٣، ص ٣٨٧). وأشار إلى شواهد تعود إلى القرن الخامس تؤكّد أهميّة القديس جرجس في الكنيسة الشرقيّة، منها أن التقويم الأول الذي رُسمت فيه أسماء القدّيسين يذكر اسم القديس جرجس، وهذا السجل كُتب بالسريانيّة سنة٤١١ وهو محفوظ في خزانة المتحف البريطاني في لندن، وقد نشره المُستشرق البريطاني رايت (Wright). ثم أشار شيخو إلى انتشار عبادة جرجس في القرن السادس في فرنسا والنمسا وأنكلترا وأسبانيا، وذكر ان الانكليز عادوا خلال حروب الفرنج ببعض ذخائر جرجس إلى بلادهم حتى أنهم اتّخذوه شفيعًا لبلادهم وبنوا الأديار على اسمه، وكذلك فعل ملوك أراغونية والبرتغال وأمراء جنوى.

---

[٢] يمكن مراجعة نصّ أوسابيوس القيصري الذي لم يذكر فيه اسم القديس جرجس: (Eusebius of Caesarea,1838 p. 296-97)

يُعد عرض شيخو لانتشار عبادة جرجس مختصرًا ودقيقًا من الناحية التاريخيّة، فقد ورد في نصّ لاتيني عن سيَر القديسين يعود للقرن الثامن إشارة إلى جرجس الذي من اللدّ ونُسبت إليه عجائب متعددة، ومنها أنّه أعاد الحياة إلى أشخاص ماتوا ودُفنوا منذ قرون. كذلك انتشرت أساطير عن القدّيس جرجس سريانيّة وقبطيّة وأثيوبيّة وبيزنطيّة [٢]. كذلك شاعت روايات عن انتشار عبادته في أوروبا [٣].

كذلك شاع ذكر القديس جرجس عند المسلمين، وهم على رأي شيخو يكرّمونه كنبي ويروون قصته في كتبهم ويدعونه باسم الخضر، ونقل عن الثعلبي في كتابه قصص الأنبياء أن "**جرجيس**" كان عبدًا صالحًا من أهل فلسطين وقد "**أدرك بقايا من حواري عيسى بن مريم عليه السلام وكان تاجرًا كثير المال عظيم الصدقة**". كذلك اعتمد على صالح بن يحيى ليؤكّد أن المسلين أقاموا في أمكنة عديدة مزارات ومساجد على اسمه ومنها المسجد الواقع في شرق بيروت، وقد حدّد شيخو المرجع ضمن هلالين (راجع تاريخ بيروت لصالح بن يحيى الذي سعينا بنشره ص ١٩، و٢٧١) [٤].

وأشار شيخو إلى تنّين القديس جرجس معتمدًا على رواية صالح بن يحيى ومما جاء فيها "**وقد زعم النّصارى أن في القدم خرج في بيروت تنين عظيم فقرر أهل بيروت له في كلّ عام بنتًا يخرجونها إليه إكتفاءً لشره فوقعت القرعة في سنة من السنين على صاحب بيروت. فأخرج بنته ليلاً إلى مكان موعد التنين فتوسلت بالدعاء إلى الله فتصوّر لها مار جرجس القديس. فلما جاء التنين خرج عليه مار جرجس فقتله فعمّر صاحب بيروت في تلك المكان كنيسة بالقرب من النهر. والنصارى تصوّر هذه الكائنة في سائر كنائس بلادهم قلّ ما يخلو منها كنيسة. ... وأهل بيروت المسلمين والنصارى يخرجون في تلك العيد إلى نهر بيروت يسمّى عيد النهر وهو من البِدَع... والعيد المذكور دائمًا يكون ثالث وعشرين نيسان**". ورد النصّ نفسه في تحقيق آخر لكتاب صالح بن

---

[٢] – ترجم السير (Ernest A Wallis Budge) بعض النصوص السريانيّة إلى اللّغة الانكليزيّة سنة ١٨٨٨ (Budge, ١٨٨٨)

[٣] حول سيرة مار جرجس في المصادر المسيحية وانتشار عبادته في الأوساط المسيحيين في الشرق والغرب، يمكن مراجعة: (مروان أبي فاض، ٢٠١٨، أ، ص ١١٧– ١٢٢).

[٤] راجع ما نقله شيخو عن انتشار عبادة جرجس في القرنين الخامس والسادس وفي العهد الفرنجي وعند المسلمين:(شيخو، ١٩٠٣، ص ٣٨٧–٣٨٨).

[٢] يمكن مراجعة الكتاب الذي حققه لويس شيخو(صالح بن يحيى، ١٩٢٧، ص١٦).

يحيى، وقد حذف شيخو منه العبارة الآتيّة " **ويزعموا النصارى إن مار جرجس من لدٍ قتله ملك عبدة الأصنام بحوران وله عيد مشهور عندهم في ساير البلاد**" (صالح بن يحيى، ١٩٦٩، ص ٩). واعتبر شيخو أن صورة التنّين هي رمزية وقد وردت في صور كثيرين من القديسين (شيخو، ١٩٠٣، ص ٣٨٩)، وأشار إلى أن العامة اختلقت قصصًا عن جرجس وابنة الملك، وذكر منها مديحة مار جرجس المكتوبة بالكرشونيّة ويرتقي عهدها إلى نحو مئتي سنة [٦] [٢].

حصر لويس شيخو قصة تنّين القديس جرجس بروايات اختلقتها العامة من الناس، مع العلم أن مؤرّخين، منذ القرن التاسع عشر، كانوا قد وضعوا دراسات متنوّعة عن مار جرجس وربطوا شخصيّته بشخصيّات آلهة تنتمي إلى حضارات الشعوب القديمة ومنها الإله المصري حوروس المُتمثل في نقوش عدّة يحمل حربته على صهوة جواده، وهو يقتل تمساحًا يذكّر بصور القديس جرجس تصوّره راكبًا على فرس بيضاء وبيده حربة يطعن بها التنين (Clermont – Ganneau, 1877, p. 196–204, 372–399). وبعد تحليل نصّ صالح بن يحيى، استرعى انتباهنا الصِّراع الدائر بين البَرّ البيروتيّ المرموز إليه بالقدّيس جرجس، واليمّ المرموز إليه بالتنّين العظيم. ونرى جذور هذا الصِّراع في نصوص دينية قديمة، منها أساطير أوغاريت التي أشارت إلى انتصار بعل إله الأرض والرعد والمطر على "يم" البحر [٧]. كذلك رُبطت أساطير المواجَهات بين البر والبحر بتقاليد عبرانية وسامية ويونانية قديمة [٨].

وأشار شيخو إلى بعض الروايات التي تنزات خبر استشهاد القديس جرجس وأصناف العذابات التي كابدها، واعتبر أنها من المزاعم، وقد اعتمد على مصدرين عربيَين هما: "**الثعلبي في قصص الأنبياء (ص.٣٧٧–٣٨٢) وأبو جعفر الطبري في تاريخه (طبعة ليدن القسم الأول ص ٧٩٥–٨١٢)**" [٩]. وختم مقالته في خطبة تُقرأ في

---

[٢] يمكن قراءة مديحة مار جرجس كما نقلها لويس شيخو بالعاميّة: شيخو، ١٩٠٣، ص ٣٨٩–٣٩٢.

[٢] يمكن الاطّلاع على صفات بعل وانتصاره على يم وموت في: (Toi, 1974, p. ٨٥–٧٣)

[٢] حول تحليل نصّ صالح بن يحيى والأبعاد التاريخية لعيد النهر يمكن مراجعة: (أبي فاضل، ٢٠١٨، ب، ص ٦٤ – ٨٦).

[٢] شيخو، ١٩٠٣، ص ٣٩٣؛ يمكن مراجعة سيرة جرجس عند الثعلبيّ (المتوفَّى سنة ١٠٣٥م.)، النيسابوريّ، ١٩٥١، ص ٣٥٥–٣٦١؛ وكذلك أشار الطبري (المتوفّى سنة ٩٢٣م) إلى سيَر رسُلٍ اعتبرهم من "عباد الله الصالحين". وتوسّع في الحديث عن "جرجيس. " (الطَّبريّ، ١٩٦٠، ص ٢٤– ٣٦).

عيد مار جرجس مُستلة من سنكسار الأقباط، وقال "**نرويه هنا ليطّلع القرّاء على كثرة العجائب التي نُسبت للقديس جرجس تعظيمًا له**" (شيخو، ١٩٠٣، ص ٣٩٣-٣٩٥).

لقد توسّعت المصادر العربيّة في الإشارة إلى سيرة جرجس، كذلك توسّعت في الحديث عن الخضر، وخلافًا لما أورد شيخو أو كما يرد في التقاليد الشعبيّة، فأننا نرى أن جرجس والخضر هما شخصيّتان مختلفتان، لكل منهما سيرة مختلفة تمامًا عن الآخر، ولكنهما يتشاطران وظائف مشتركة هي القوّة والخلود والخصوبة، وتذكّرنا بوظائف البعل وغيره من آلهة الخصب والقوّة والشباب في الشرق الأدنى القديم وفي حواضر حوض المتوسّط. كذلك إنّ سيرة مار جرجس التاريخيّة، كما سيرة الخضر، تبقى غامضة وعرضة لتحليلات وتفسيرات متعدّدة .

وأشار شيخو في عدد آخر من مجلة المشرق إلى أثر جديد لأعمال القديس جرجس، واعتبر أن لهذا القدّيس قصص مختلفة وفيها الكثير من العجائب والمعجزات والغرائب، وذكر أنها شاعت بين العرب "**فرواها ابن جرير الطبري في تاريخه الرسل والملوك (١:٧٩٥-٨١٢)، وكذلك رواها بتفاصيلها الثعلبي في كتاب قصص الأنبياء المعروف بالعرائس (ص ٣٧٧-٣٨٨) ثمّ وقفنا على مخطوط إسلاميّ وقع في يدنا في هذه السنة عنوانه بغية السائلين في ٣٨ بابًا يحتوي أخبار الرُّسل والأنبياء لكاتب لقديم لم يُذكر اسمه ففي الفصل ٢٥ منه قصّة القديس جرجس نثبتها هنا بحرفها الواحد ليعلم القرّاء ما ابتدعه الكتبة القدماء تنويهًا بكر ذلك الشهيد العظيم**" .

ومضمون الرواية شبيه بما ورد عند الطَّبريّ وغيره من المؤرّخين، ولكن وردت فيها إشارة إلى أنّ "جرجيس"، بعد نجاته من محاولات الملك المستمرّة لقتله، طلب من الملك ذادنة أن يقرّ بوحدانيّة الله فردّ الملك: "**يا جرجيس إن كنت صادقًا في ما تقول فادعُ ربّك أن يجعل أخشاب هذا الكرسي الذي أنا عليه وهذه الفاكهة التي آكل منها شجرًا أخضر...**"؛ فطلب جرجس من الله أن يحقّق ذلك، ولمّا فرغ من دعائه اخضرّت أخشاب الكرسيّ "**ثمّ أزهرت وأثمرت وكلّ خشب أنبتت ثمرتها بأذن الله تعالى**" (شيخو، ١٩٠٧، ص ٤١٧).

---

[٣] حول سيرة جرجس والخضر في المصادر العربية وغير العربية، والعلاقة بينهما يمكن مراجعة: (أبي فاضل، ٢٠١٨، أ، ص. ١١٥ - ١٤٦).

[٣] يمكن قراءة المخطوط في (شيخو لويس، ١٩٠٧، ص ٤١٤-٤٢٠).

وقد تكون الإشارة إلى اخضرار أخشاب الكرسيّ من الإشارات النادرة في المصادر العربيّة، ويمكن أن نستنتج من خلالها أوّل ارتباط بين جرجس والخضر الذي يحمل في معانيه اللون الأخضر، وكلّ ما يلمسه يصبح أخضرَ (أبي فاضل، ٢٠١٨، ب، ص ١٢٧). وختم شيخو مقالته أن هذه القصة مع كثرة ما ورد فيها من الغرائب على علّاتها لم تُشر إلى التنّين، وكذلك الخطبة القبطيّة، "**وفي هذا السكوت دليل على أن الرواية محليّة لم تُعرف في غير جهات فلسطين والشام**" (شيخو، ١٩٠٧، ص ٤٢١). ومن المرات النادرة في مقالاته أشار في الحاشية إلى إمكانية الاطلاع على مقالين في شهادة القديس جرجس [٢] [٣].

الخاتمة

كان لويس شيخو وفيًّا للهدف الذي تأسّست المجلة على أساسه، وهو الدفاع عن العقيدة الكاثوليكيّة، وفي سبيل هذا الهدف وضع مقالات تاريخيّة وأنتروبولوجيّة، وفسّر عادات وتقاليد أهل بلاده من المسيحيّين. اتّسم أسلوبه بالسلاسة والوضوح، وذكر بعض أسماء الكتّاب والمؤرّخين، ولكنه لم يتوسّع في الاعتماد عليهم، ونادرًا ما ذكر أسماء مؤلّفاتهم. وفي ذلك اتّسمت منهجيّته بالضعف إذا ما قارناه مثلا مع بعض المؤرّخين الذين كتبوا في الفترة عينها تقريبا ومنهم على سبيل المثال الأب مرتين اليسوعي (١٨٢٥–١٨٨٠) الذي تُرجم قسم من كتابه إلى اللغة العربيّة، والمطران يوسف الدبس (١٨٣٣–١٩٠٧) الذي كتب التاريخ القديم من منطلقات منهجيّة وعلميّة .

وعلى الرَّغم من ذلك، تعبّر مقالات شيخو عن جوٍّ ثقافي صحي، يقوم على الحوار ومواجهة الرأي الآخر بالكلمة، والبحث عن الحجج العلميّة. مع العلم أن تقييمنا له يقتصر على تحليلنا لبعضٍ من مقالاته، وله عشرات المقالات الأخرى التي لم نتطرق لها في مقالنا هذا.

---

[٢] – أشار شيخو باللغة الفرنسية والانكيزية إلى المرجعين:

Amelineau (April, 1892). *Etudes critique sur le martyre de St. Georges d'après le texte Copte (les actes des Martyrs Coptes)*, p. 241–527; R.P. Thurton, St. George.

[٣] لقد ترك يوسف الدبس مدرسة تاريخية علمية تركت أثرها على المدرسة التاريخية اللبنانية، تجلّت من بعده مع المؤرخ أنيس فريحة وغيره من المؤرخين اللبنانيين المعاصرين. حول نظرة الدبس إلى تاريخ لبنان القديم، يمكن مراجعة: (أبي فاضل، ٢٠٠١).

وتقدّم دراستنا لشيخو أنموذجًا عن أهمية مجلة المشرق التي تختزن آلاف المقالات العلميّة التي يُمكن أن تُدرس لتبيان نظرة المؤرّخين مطلع القرن العشرين إلى تاريخ لبنان القديم، وتساعدنا على فهم تطور الدراسات التاريخيّة. وما تزال مجلة المشرق حتى يومنا هذا تنشر أحدث الدراسات التاريخيّة العلميّة، وتبقى وفيّة لسيرة مؤسّسها الذي كان مزهوًا بتطوّر الحركة الثقافيّة في زمانه، وكان يرغب في المساهمة في تقدّم أبناء بلده من خلال تعريفهم على أحدث النظريّات والمؤلفات العالميّة، وهو دور ما زلنا نأمل أن تؤدّيه صحافة اليوم.

المختصرات

BNF = Bibliothèque Nationale de France.

DA = Leclant Jean (2005). *Dictionnaire de l'Antiquité*. Paris : Presse Universitaire de France.

DS = *Dictionnaire de Spiritualité (1982).* tome XI, Paris : Beauchesme.

Krings = Krings Veronique (éd.) 1995). *La civilisation phénicienne et punique: manuel de recherche*. Leiden – New-YORK – Köln.

TOI= Caquot, A., Sznycer, M., Herdner, A., (1974). *Textes Ougaritiques I. Mythes et légendes*, Paris : LAPO .

المصادر العربية

- بن يحيى، صالح(١٩٢٧). **تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب(ط٢)**. سعى إلى نشره وتعليق حواشيه الأب لويس شيخو. بيروت: المطبعة الكاثوليكية.

ـــــــــــــ (١٩٥٩). **تاريخ بيروت وهو أخبار السلف من ذريّة بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت**. تحقيق فرنسيس هورس، كمال الصليبي وغيرهما، دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية): بيروت؛ وللكتاب طبعة أخرى غير معروفة باسم المحقق: صالح بن يحيى (١٩٩٠). **تاريخ بيروت وأمراء بني الغرب**. بيروت: دار الفكر الحديث.

- الطبريّ، محمّد بن جرير)(١٩٦٠). **تاريخ الرسل والملوك**. ج٢. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. مصر: دار المعارف.

- النيسابوريّ، أبو اسحاق أحمد بن محمّد بن إبراهيم المعروف بالثعلبيّ (١٩٥١). **قصص الأنبياء المسمّى عرائس المجالس**. مصر: المطبعة البهيّة المصريّة.

عناوين مقالات الأب لويس شيخو التي استندت إليها الدراسة :

–شيخو، لويس(١٨٩٨)، أ، "المقدمة مع إسداء الشكر لأولي الأمر". **مجلة المشرق**. السنة الأولى، (١)، ١–٤.

–شيخو، لويس(١٨٩٨)، ب، "أسئلة وأجوبة – ما هو أصل العادة الجارية في رأس السنة المعروفة عند العامة بالبسترينة أو الصباحية". **مجلة المشرق**. السنة الأولى، (١)، ٤٧–٤٨.

–شيخو، لويس(١٨٩٨)، ج، "يوم ميلاد المسيح". **مجلة المشرق**. السنة الأولى، (٧)، ٣٣٣–٣٣٤.

–شيخو، لويس(١٨٩٨)، د، "أسئلة وأجوبة – عيد القديسة بربارة في سورية". **مجلة المشرق**. . السنة الأولى، (٢٤)،١١٣١–١١٣٥.

–شيخو، لويس(١٨٩٨)، هـ، "تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب لصالح بن يحيى". سعى إلى نشره وتهذيب عبارته وتعليق حواشيه الأب لويس شيخو اليسوعي، **مجلة المشرق**. السنة الأولى، (١)، ٨٣–٨٦.

–شيخو، لويس(١٩٠٠)، أ، "عيد الغطاس". **مجلة المشرق**. السنة الثالثة، (٣) ١٤٠ – ١٤١.

–شيخو، لويس(١٩٠٥)، أ، "أحد الشعانين ورُتَبهُ – نظر تاريخي دينيّ". **مجلة المشرق**. السنة الثامنة، (٨)، ٣٣٧–٣٤٤.

–شيخو، لويس(١٩٠٥)، ب، "عيد الصليب". **مجلة المشرق**. السنة الثامنة، (١٨)، ٨٥٤–٨٦١.

–شيخو لويس، غنيمة البغداي يوسف أفندي(١٩٠٦)، "صوم نينوى في الكنائس الشرقية". **مجلّة المشرق**. السّنة التاسعة، (٤)، ١٧١–١٧٧.

–شيخو، لويس (١٩٠٤)، "التوحيد والوحي". **مجلة المشرق**. السنة السابعة، (٥)، ٢٣٠–٢٣٦.

–شيخو، لويس(١٩٠٠) ، ب، "المقتطف والتوراة". **مجلة المشرق**. السنة الثالثة، (١٧)، ٨٠٠–٨٠٤.

–شيخو، لويس (١٩٠٥)، ج، " أسئلة وأجوبة – ما هي الدولة العيلامية التي ذكرنا كتابتها في المشرق؟"، ٧٧١، وماذا يُعرف من تاريخها؟". **مجلة المشرق**. السنة الثامنة، (٢١)، ١٠١٢.

–شيخو، لويس(١٩٠٤). ب، "العذراء مريم في الشعر العربي". **مجلة المشرق**. السنة السابعة، (٩)، ٤١٩–٤٣٣.

–شيخو، لويس،(١٩٠٣) ، "تذكار المئة السادسة عشرة لاستشهاد القديس جرجس". **مجلة المشرق**. السنة السادسة،(٩)، ٣٨٥–٣٩٥.

–شيخو، لويس(١٩٠٧). "أثر جديد لأعمال القديس جرجس الشهيد". **مجلة المشرق**. السنة العاشرة، (٩)، ٤١٤–٤٢٠.

المراجع العربية

- أبي فاضل، مروان (٢٠١٤). **تاريخ لبنان القديم في الكتب المدرسية اللبنانية (من القرن التاسع عشر حتى اليوم)**، تمّ تقديم الكتاب في إطار بحث نال موافقة لجنة "إدارة البحث العلمي في المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية"، بيروت.

ـــــــــــــ (٢٠٠١). **مفهوم تاريخ لبنان القديم من خلال مؤلفات المطران يوسف الدبس.** (رسالة دبلوم دراسات عليا بإشراف الدكتور أنطوان القسيس). الجامعة اللبنانية، لبنان.

ـــــــــــــ (٢٠١٨). أ، "جرجس والخضر: سيرتان مختلفتان ووظائف مشتركة"، **مجلة كرونوس** (مجلة دراسات تاريخية تصدرها جامعة البلمند)، (٣٨) ١١٥ – ١٤٦.

ـــــــــــــ (٢٠١٨). ب، "بيروت "الخضر"و"مار جرجس" بين الدين والأساطير"، **مجلة مرايا التراث.** (٨). ينشرها مركز التراث اللبناني في الجامعة اللبنانية الأميركية. ٦٤ – ٨٦.

- حشيمه، كميل (٢٠١٣). **المؤلفون العرب المسيحيّون من قَبل الإسلام إلى ما بعد القرن العشرين. ج٦** . بيروت: دار المشرق،
- سركيس، حسان سلامة(٢٠٠٣). **الأرخيولوجيا: منهجيات . مراحل . إشكاليات.** بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية.
- عبّود، مارون(٢٠١٢). **أحاديث القرية – أقاصيص وذكريات.** بيروت: دار نظير عبّود.

ـــــــــــــ (لا.ت). **مؤلفات مارن عبّود المجموعة الكاملة. مج. ٧ الأقاصيص.** بيروت: دار مارون عبّود، دار الثقافة.

- فريحة، أنيس(١٩٩١). **دراسات في التاريخ.** طرابلس: جروس برس.
- كُراف، جرجس(١٩٠٥). "أثر نصراني قديم أو ترجمة مار ابراميوس بالعربيّة". **مجلة المشرق.** السنة الثامنة،(٦)، ص ٢٥٨.

ـــــــــــــ "أثر نصراني قديم أو ترجمة مار ابراميوس بالعربيّة". **مجلة المشرق،** السنة الثامنة،(٦)، ص ٢٥٨.

- اليسوعي، مرتين (١٩٨٦). **تاريخ لبنان** (ط٢)، تر. رشيد الشرتوني، تحقيق وفهرسة نظير عبود. لبنان: دار مارون عبود. (تاريخ نشر العمل الأصلي غير معروف).

المصادر الأجنبية

Eusebius of Caesarea (1838). *An Ecclesiastical History*, trans. Rev CF Cruse Samuel Bagster, bk VIII, London.

- Migne, Abbé Jacques-Paul, 1844-1855, *Patrologia Latina*, Paris.

- Suriano, Francesco(1983). *Treaties on the Holy Land*, translated by T. Bellorini –E. Hoade with a preface and notes by B. Bagatti, Franciscan Printing Press, Jerusalem.

المراجع الأجنبية

- Amiet, Pierre(2005) «Elam» DA, p. 774-775.

- _____ «Suse » *DA*, p. 2096.
- Clermont – Ganneau, Charles (1877). « Horus et Saint Georges d'après un bas-relief inédit du Louvre », *RA,* Vol. 32, Paris : Didier, p. 196-204, 372-399.
- Grimal, Nicolas (1988). Histoire de l'Egypte Ancienne, Paris: Fayard.
- Lenormant, François (1869). *Histoire ancienne de l'orient jusqu'aux guerres Médiques*, 1-3, Paris.
- Maspero, Gaston (1876). *Histoire ancienne des peuples de l'Orient,* 2ème édition, Paris.
- Ouru ,Guy Marie (1982). *DS*, XI, 385 – 394.
- Ranke, Hermann, Erman Adolf (1963). *La civilisation égyptienne*, trd. CH. Mathien, Paris : Payot.